حقائق مخفية حول الإسلام والمسلمين في إفريقيا

أ/ صالح زنداقي
قسم العلوم الإسلامية ـ جامعة الحاج لخضر ـ باتنة

ملخص:
هذا المقال هو محاولة لتوضيح عدة حقائق مجهولة حول الإسلام والمسلمين في إفريقيا، أدى عدم وضوحها إلى انتشار معلومات خاطئة عنها على نطاق واسع. وقد تناول المقال بالتوضيح ما يلي:
ـ بطلان دعوى أن الأوربيين هم من استكشف قارة إفريقيا، وبيان أن المسلمين قد سبقوهم إلى ذلك بقرون عديدة، تصل في بعض المناطق إلى خمسة قرون، باعتبار أن المسلمين قد توغلوا في القارة ابتداء من القرن الرابع الهجري؛ العاشر الميلادي، وأما البرتغاليون وهم أول من غزا القارة من الغربيين، فلم يصلوا إلى وسط القارة إلا في القرن الخامس عشر الميلادي.
- بيان الطرق التي وصل بها الإسلام إلى إفريقيا جنوب الصحراء، وأنها من المناطق التي وصلها الإسلام دون حروب، وإنما وصلها عن طريق أخلاق التجار والدعاة إلى الله، وأنها في ذلك مثل جنوب شرق آسيا التي يشير إليها الباحثون دائما ولا يذكرون إفريقيا إلا ما ندر.
- بيان دور المسلمين في تنمية القارة، وإقامة دول وحضارات على أراضيهم شهد الكل بتقدمها ورقيها.
- إبراز صورة مقاومة المسلمين للاستعمار الأوربي، وبيان الجهد الكبير الذي قاموا به في سبيل صد موجات الاستعمار التي غزت القارة.
- تبيين حقائق حول أعداد المسلمين في القارة، وكشف محاولة بعض الباحثين الغربيين، لأغراض غير نزيهة، تقليل عددهم بصورة متعمدة.

Résumé:
Cet article est une tentative de clarifier plusieurs vérités inconnues sur l'Islam et les musulmans en Afrique, qui a poussé son ignorance à certaine information incorrecte de se propager à longue durée.
Cet article nous montre que:

Les européens n'ont jamais découvert l'Afrique les premiers mais les musulmans les ont précédés de plusieurs siècles et certaines places, ils les ont précédés de cinq siècles, considérant que les musulmans ont entré en Afrique le début du 10ème siècle. Les portugais sont les premier qui ont conquérez l'Afrique parmi les européens, ils sont arrivés eu Afrique au 15ème siècle.

Montrer comment l'Islam est arrivée Afrique au sud du Sahara, et qu'il est arrivé sans guerre mais avec la moralité des commerçants musulmans, et les invités à la générosité de l'Islam, comme le sud-est de l'Asie qu'on en parle toujours oubliant l'Afrique.

Montrer le rôle important des musulmans dans le développement du continent, et l'institution des pays civilisés et modernes.

Faire sortir l'image de la résistance islamique contre le colonialisme européen, et montrer que les musulmans africains ont eu un grand rôle dans cette résistance.

Donner des informations véridique du pourcentage des musulmans en Afrique, et révéler la tentative de quelques érudits occidentaux pour la réduction déloyale du nombre des musulmans en Afrique pour des raisons malhonnêtes et donner des faux pourcentages; Délibérément.

مقدمة:

يحاول هذا المقال أن يوضح عدة حقائق مجهولة حول الإسلام والمسلمين في إفريقيا، أدى عدم وضوحها إلى انتشار معلومات خاطئة عنها على نطاق واسع. وصاغ المقال حولها عدة تساؤلات حاول الإجابة عنها.

ومن هذه التساؤلات ما يلي:

- هل حقا أن الأوربيين هم من اكتشف قارة إفريقيا؟ وأن العالم لا يعرف شيئا عن إفريقيا جنوب الصحراء قبل مجيئهم؟ وما الذي قام به المسلمون في هذا الشأن؟

- ما الطرق التي وصل بها الإسلام إلى عمق قارة إفريقيا بل وأصبح هو الدين الأول في الكثير من دولها؟ وهل تم ذلك الفتح عنوة أو صلحا؟ أم أن هناك نوعا ثالثا من الفتح؟

- ما الدور الذي قام به المسلمون لمقاومة الاستعمار الغربي حينما غزا القارة؟

- ما حقيقة الأرقام التي يتداولها الغربيون عن أعداد المسلمين القليلة في الدول الإفريقية؟ وهل المسلمون فعلا أقلية في القارة الإفريقية؟

أولا: جهود المسلمين في اكتشاف القارة:

الحقيقة التي لا مرية فيها أن المسلمين كان لهم دور كبير في كشف القارة وقد سبقوا الأوربيين إليها بزمن طويل. بل إن ما وصل إليه المستكشفون الأوربيون في العصر الحديث يرجع الفضل فيه لمرافقيهم من البحارة والأدلاء العرب وإن لم يشر الكتاب الذين كتبوا عن الرحلات الكشفية إلى هذا الفضل[1]. وإن كان بعض المستكشفين الأوربيين صرح بأن المسلمين قد سبقوهم، مثل [لفنجستون - Leyfgsstoun].

وبينما لم يكن الجغرافيون الأوربيون يعرفون عن وسط القارة وجنوبها شيئا، لدرجة أنهم كانوا يرمزون لها في خرائطهم ببحيرة واسعة، أو بسلاسل جبلية، أو بصور حيوانات مفترسة. في تلك الفترة كان المسلمون قد انتشروا في إفريقيا السوداء وتوغلوا داخلها، ونتج عن ذلك قيام إمبراطوريات إسلامية عظيمة جنوب الصحراء.

وظلت بعض هذه الدول الإسلامية قائمة إلى بداية الاستعمار الأوربي للقارة، وقد نجح المسلمون في الوصول إلى قلب إفريقيا عن طريق عبورهم للصحراء الواسعة ورمالها المترامية الأطراف، فيما فشل الأوربيون في ذلك، واقتصروا لفترة طويلة من الزمن على بضع مواضع من الساحل الشمالي والغربي.

وكذلك انتشر العرب المسلمون في الساحل الشرقي واستقر عدد كبير منهم هناك، واستوطنوا الجزر الساحلية كزنجبار وبمبا، وفي المراكز الساحلية مثل سفالة ومالندي وممبسة ودار السلام، واستطاعوا أن يطبعوا هذه المناطق الواسعة من شرق القارة بلغتهم وديانتهم، حتى نشأت فيها لغة جديدة تجمع بين اللغة العربية ولغة أهل هذه المناطق، وهي اللغة السواحلية.

وكان من أثر ذلك أن أنشأ المسلمون حواضر لم تكن موجودة من قبل، مثل مدينة مقديشيو التي تأسست في القرن الثاني الهجري - سنة 860 ميلادي- على يد عرب الأحساء الذين استوطنوا هناك، ومن الصومال واصل المسلمون سيرهم إلى تانزانيا وكينيا في القرن الثالث الهجري[2].

ويذكر المؤرخون أن الرحالة المسلمين والأجانب على السواء، الذين زاروا الإمارات العربية المسلمة في شرق إفريقيا، تحدثوا بانبهار عما رأوه في هذه الإمارات من مظاهر الحضارة والرقي[3].

و كذلك كان للجغرافيين العرب مجهوداتهم الضخمة التي أضافت الكثير لمعلوماتنا الجغرافية عن إفريقيا جنوب الصحراء، وكان الكثير منهم يجوب أدغال إفريقيا خلال القرن الثالث الهجري وما بعده، أي التاسع الميلادي وما بعده.

ونشير باختصار إلى بعض هؤلاء الجغرافيين المسلمين، والمناطق التي وصلوا إليها في إفريقيا، ومؤلفاتهم حولها:

الجغرافيون والرحالة المسلمون ودورهم في اكتشاف القارة: ومن هؤلاء:

1- **المسعودي**: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي**:**

ولد في بغداد، في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وقضى زهرة شبابه بها، قبل أن يبدأ رحلاته، وتوفي في مصر سنة 346 هـ 957 م.

ألّف عدة كتب منها: «مروج الذهب ومعادن الجوهر» و«أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران» و«التنبيه والإشراف» و«أخبار الأمم من العرب والعجم» والكتب الثلاثة الأولى مطبوعة[4]، وكل هذه الكتب قد تطرق فيها إلى شيء من جغرافية العالم.

والمسعودي بغدادي المنشأ، ويذكر الباحثون أنه أمضى عشرين سنة متنقلا، حيث خرج من بغداد سنة 301هـ، وزار مدغشقر- والتي يسميها القدماء بلاد الواق واق - عدة مرات، آخرها سنة 304 هـ ، كما صرح بذلك في مروج الذهب، وذكر أن العمانيين يكثرون الذهاب إلى هناك، كما ذكر أنه لاقى أهوالا كثيرة في ركوبه البحر المؤدي إليها، إلى درجة قوله:

"وقد ركبت عدةً من البحار؛ كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرةً، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج"[5]. وذكر بأن فيهم مسلمين، ووصف من حال سكانها أن دوابهم البقر، وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل، ولا يعرفونها، وكذلك لا يعرفون الثلج والبرْد[6]. وهذا حالهم إلى الآن، وهو حال من يعيش في المناخ الاستوائي.

2- ابن حوقل: محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم:

توفي بعد سنة 367 هـ. وهو تاجر موصلي كما يذكر ذلك ياقوت عند النقل عنه. رحل من بغداد سنة 331 هـ ، وجاب إفريقيا من الشرق إلى الغرب

أي من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي. ويذكر عنه ياقوت أنه كان في أغمات بلدة قرب مراكش بعد الثلاثمائة من الهجرة[7].

ومر بالحبشة وزيلع والنوبة، ورأى نهر النيجر، وألف كتابين هما «المسالك والممالك» و«صورة الأرض».

3- الإدريسي: محمد بن عبد الله السبتي المغربي:

ولد في مدينة سبتة سنة 493هـ - 1100م، وتوفي بها أيضا سنة 560هـ - 1165 م بعد تطواف كبير. وهو من أشهر الجغرافيين المسلمين، وقضى حياته في التجول، وقام بعدة رحلات في إفريقيا. وله كتاب مشهور في ذلك هو «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» وله أيضا «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» انتهى من تأليفه سنة 548 هـ، كتبه لصاحب صقلية روجر الثاني، حين نزل عليه، وقد تُرجم إلى الفرنسية ترجمة كثيرة الخطأ كما يقول سيبولد، في دائرة المعارف الإسلامية، وتُرجم إلى اللاتينية والإنكليزية والألمانية[8] والإيطالية[9]. ولخصه المقريزي في كتابه الذي سماه «جني الأزهار من الروض المعطار».

4- ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي:

ولد في طنجة، وهو من أعظم الرحالة العرب، طاف معظم بقاع العالم القديم في وقته، بدأ رحلته سنة 725هـ من طنجة مسقط رأسه، وزار الكثير من أرض إفريقيا، حيث زار سواكن وزيلع ومقديشيو وكلوة وممبسة وسجلماسة وتمبكتو وتاكدا، وشاهد نهر النيجر، ويصف في رحلته الأماكن التي زارها بتفصيل دقيق يدعو للإعجاب والتقدير[10].

5- حسن بن الوزان:

ولد في غرناطة سنة 898هـ - 1493م، غادر والداه غرناطة واستقرا في فاس، أرسله شريف فاس موفدا إلى دولة صنغاي سنة 915هـ، فسافر عن طريق سجلماسة إلى تمبكتو، وكانت في ذلك الوقت في قمة مجدها، ثم زار مملكة مالي، ومن صنغاي اتجه شرقا إلى بلاد الهوسا، ثم إلى بورنو.

وفي عام 924هـ - 1518م أسره القراصنة النصارى، وحملوه إلى بابا الفاتيكان ليو العاشر، الذي أطلق سراحه فيما بعد، وهناك أكمل كتابه وسماه «تاريخ ووصف إفريقيا»، وفيه معلومات مفيدة عن داخل إفريقيا لم تكن معروفة من قبل[11].

هؤلاء هم بعض الجغرافيين المسلمين الذين كانت لهم جهود كبيرة في تعريف العالم بإفريقيا جنوب الصحراء، وأقول بعضهم لأنه يوجد كثير

غيرهم؛ ونحن لا نستطيع حصر كل ما كتبوه عن إفريقيا، مما هو مطبوع أو مخطوط، وهناك مصادر لم تصلنا أصلا.

وإذا تمعنا جيدا في تضاريس القارة الإفريقية ومناخها، ثم في الزمن الذي استكشفها فيه المسلمون، فإننا ندرك حينئذ عِظَم العمل الذي قاموا به؛ وذلك لأن القارة الإفريقية تتميز بقساوة مناخ صحاريها، واتساع مساحتها، مما شكل حاجزا منيعا بين شمال القارة وجنوبها، وتتميز كذلك بتضاريسها الصعبة وقصر سواحلها بالنسبة لمساحتها، و كذلك بقلة صلاحية أنهارها للملاحة، وبقلة الجزر القريبة من السواحل، وهذا ما أدى إلى تأخر استكشاف إفريقيا من غير أهلها مقارنة مع قارات العالم القديم الأخرى.

وجود هذه الصعوبات ووجود عقبات أخرى حيث لم تكن وسائل المواصلات والاتصالات الحديثة قد وجدت بعد، جعلت الجغرافيين والرحالة المسلمين يتعرضون لمتاعب لا يمكن وصفها، ومع ذلك كله فقد قاموا بجهود عظيمة، تعتبر خارقة للعادة فعلا في ذلك الوقت، من أجل التوغل إلى عمق إفريقيا والوصول إلى المعلومات بأنفسهم وتدوينها في مؤلفاتهم، ومن ثَم إفادة العالم بأكمله بها.

ثانيا: كيف وصل الإسلام إلى إفريقيا؟

أ- إفريقيا قبل دخول الإسلام إليها:

قبل التحدث عن انتشار الإسلام، لا بد من إلقاء نظرة على الأديان التي كانت سائدة في القارة الإفريقية قبل وصول الإسلام إليها.

فقد كان في إفريقيا ديانات عديدة اعتنقها الأفارقة قبل دخول الإسلام بوقت كبير.

فاليهودية مثلا كانت بعض جذورها قد استقرت بمدينة الإسكندرية، ونفذت أيضا إلى بعض مدن شمال إفريقيا، ووصلت إلى المغرب الأقصى.

وكانت النصرانية قد استقرت في وادي النيل وانتشرت هناك انتشارا كبيرا منذ القرن الرابع الميلادي، ووصلت إلى شمال إفريقيا خاصة في المدن الساحلية، وأثرت في المناطق الداخلية ولو بقدر يسير.

وانتشرت النصرانية أيضا في بلاد النوبة ووصلت إلى جزيرة مروى وعلى جانبي النيل الأزرق.

واستمرت كذلك في السودان لفترة طويلة تصل إلى تسعة قرون حتى غلب عليها الفتح الإسلامي.

وكانت الحبشة أيضا قد تنصرت حوالي سنة 330م في عهد "غيرانا" وهو أول ملك حبشي يعتنق النصرانية.

ووصلت النصرانية إلى غرب إفريقيا، حيث انتشرت دولة غانا، وإن كانت غالبا ما تكون في غرب إفريقيا مخلوطة بالديانات الوثنية[12].

وأما البربر في بلاد المغرب العربي، فقد كانوا في الأغلب مجوسا إلا في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم[13]،

وأما باقي مناطق إفريقيا، فقد كانت الوثنية وعبادة الأصنام هي السائدة فيها[14].

ب- دخول الإسلام إلى المغرب العربي:

فتحت مصر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأصبحت بعد ذلك قاعدة الفتح لإفريقيا الشمالية بعد أن تمكن فيها الإسلام.

وأما بلاد المغرب العربي فبدأ فتحها في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتحديدا سنة 27 للهجرة على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه[15]، فغزاها في 20 ألفا، فيهم جماعة من وجوه الصحابة منهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

و قد أحصى أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي صاحب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» من شهد فتح المغرب من الصحابة الكرام، فسرد أسماءهم في خمس صفحات كاملة[16].

وفتح عبد الله بن سعد مدينة "سبيطلة" الرومانية وما يحيط بها، ومازالت هذه المدينة معروفة باسمها حتى الآن وتقع في الجنوب الشرقي لتونس، وكانت مأوى منيعا للرومانيين. و في معركة سبيطلة اشتهر أمر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه[17]. وكان هذا الفتح سببا لانتصار المسلمين في معركة ذات الصواري الشهيرة التي وقعت سنة 31هـ. وكان لهذا النصر أثره الكبير في تثبيت الإسلام في الشمال الإفريقي.

ثم وجه معاوية رضي الله عنه في خلافته جيشا بقيادة معاوية بن حديج الكندي رضي الله عنه والي مصر، فوسع رقعة الفتح إلى أبعد مما كان في الفتح الأول، وغزا صقلية من البحر، ومكّن للإسلام في تلك القطعة المفتوحة.

ثم ولى معاوية رضي الله عنه على فتوح إفريقية عقبة بن نافع الفهري الفاتح العظيم، وأمره أن يتوسع في الفتوحات لنشر الإسلام والتمكين له، فرأى

عقبة أن يؤسس عاصمة للمسلمين، تكون منطلق الفتوحات الإفريقية، فأسس مدينة القيروان المشهورة إلى الآن، وكان ذلك عام 50هـ - 670م[18].

ثم جاء بعد عقبة مسلمة بن مخلد والي مصر، فولّى على إفريقية مولاه أبا المهاجر دينارا، فنشر الإسلام وتوسع في الفتوحات حتى وصل إلى تلمسان، وهي قريبة من حدود الجزائر مع المغرب الآن، ثم أكمل الفتح عقبة بن نافع في ولايته الثانية التي توغل فيها إلى أن بلغ طنجة[19]، وأدخل قوائم فرسه في البحر على شاطئ المحيط الأطلنطي، وقال لأصحابه ارفعوا أيديكم ففعلوا، وقال: "اللهم إني لم أخرج بطرا ولا أشرا، وإنك لتعلم إنما أطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام"[20].

وجاء بعد عقبة نفر يعدون من بناة التاريخ الإسلامي بالشمال الإفريقي: منهم زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغسَّاني، الذي تم على يديه مع فتح البلدان فتح العقول، وجمع بين المقدرة الحربية، والذكاء السياسي والملكة الإدارية، وأفاض على الناس عدل الإسلام وإحسانه، وبدأت في أيامه فكرة فتح الأندلس، التي حققها بعده موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد الليثي، عام 92هـ[21].

وكان استقرار الإسلام في الشمال الإفريقي بداية لتغلغل الإسلام إلى جنوب الصحراء أو ما يعرف بإفريقيا السوداء كما سنوضح في المبحث التالي:

ج- دخول الإسلام وانتشاره في إفريقيا جنوب الصحراء:

الحقيقة أن أول اتصال بين الإسلام وإفريقيا، كان منذ فجر الإسلام الأول، وكان ذلك في العهد النبوي، بل في المرحلة المكية؛ وذلك لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة (إثيوبيا اليوم) وكان من آثار هجرتهم هذه إسلام ملكها أصحمة النجاشي رضي الله عنه، وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب حين توفي؛ فعن جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة» رواه البخاري[22].

وقد انتقل الإسلام إلى إفريقيا جنوب الصحراء دون قتال، بل عن طريق دعوة وأخلاق التجار والمسافرين المسلمين وسلكوا في سبيل ذلك طرقا عديدة:

د- الطرق التي سلكها الإسلام إلى إفريقيا جنوب الصحراء:

دخل الإسلام إلى إفريقيا جنوب الصحراء من عدة محاور:

1- طريق باب المندب والبحر الأحمر: وعن طريقه انتشر الإسلام في القرن الإفريقي وإفريقيا الشرقية، وكان اتصال العرب، بالساحل الشرقي لإفريقيا قديما قبل الإسلام، لقربه من جزيرة العرب، واستقر الكثير من المهاجرين والتجار العرب في هذه المناطق، واختلطوا بأهالي البلاد، وأثروا فيهم، إلا أن التأثير الحقيقي كان بعد الإسلام، وقوي التواصل بين الطرفين، وكان الانتقال بين ضفتي البحر الأحمر مألوفا أيضا قبل الإسلام، وقوي بعد الإسلام كمعبر قريب إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج.

2- عن طريق جنوب مصر: وانتشر الإسلام عن طريقها إلى بلاد النوبة والبرنو.

3- عن طريق المغرب العربي: ووصل الإسلام عبر هذا المحور إلى إفريقيا الغربية والوسطى، وقد اتسع انتشار الإسلام في غرب إفريقيا على يد المرابطين ، وقام سكان المغرب العربي من الأمازيغ بجهد كبير على هذا المحور في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وما بعده، حيث اعتنقت دول بأكملها الإسلام عن طريق المغرب العربي، مثل موريتانيا ومالي والنيجر والسينغال وغامبيا وغينيا وأجزاء كبيرة من نيجيريا وإمبراطورية غانا وغيرها، وحل الإسلام فيها محل الوثنية[23]، كل ذلك بفضل الله تعالى ثم بفضل جهود أهل المغرب العربي الذين اعتنقوا الإسلام ثم صاروا دعاة مخلصين لدينهم، وعلى سبيل المثال؛ في القرن العاشر الهجري، اعتنق مليون وثلاثمائة ألف سنغالي الإسلام من بين مليونين هم مجموع سكان السنغال في ذلك الوقت[24]، وقامت هناك نتيجة هذه الجهود دول وممالك إسلامية، كما سنوضح بعد قليل.

وتجدر الإشارة إلى أن التجار المسلمين قد قاموا بدور بارز في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء على العموم، فقد كانت الطرق التجارية الموصلة بين المراكز الإسلامية في شمال القارة والبلاد الواقعة فيما وراء الصحراء هي المسالك الحقيقية التي تسرب الإسلام عبرها إلى قلب إفريقيا.

وكذا الأمر بالنسبة للطرق التجارية على طول ساحل المحيط الأطلسي، فقد قامت هذه الطرق بدور جليل الشأن في نشر الإسلام في بلاد السنغال وأعالي النيجر ومنطقة بحيرة تشاد.

كذلك كان شأن الطرق التجارية التي تصل وادي النيل ببلاد السودان وشرق إفريقيا[25].

ويقر الباحثون غيرُ المسلمين بهذه الحقيقة، فها هو د. والتر رودني الغواياني الذي لا نستطيع أن نَصِفَه بأنه متعاطف مع الإسلام في كتابه "أوربا والتخلف في إفريقيا" يتحدث عن إمبراطوريات غانا ومالي والصنغاي الإسلامية[26] والتقدم الكبير الذي تمتعت به، ثم عن التجارة التي كانت تتم بين شمال إفريقيا ووسطها وصولا إلى سيراليون وليبيريا وساحل العاج وغانا، عبر تلك المسافات البعيدة، ويصفها بالشيء المبهر، ثم يقول: "وكانت التجارة عبر الصحراء من الناحية الفعلية إنجازا عظيما مثل عبور المحيط؛ فقد أفضت إلى تنشيط المدن الشهيرة بالمنطقة مثل والاتة وتمبكتو وجاو وجنى، بدرجة تفوق كثيرا دور التجارة المحلية، كما أنها جلبت الثقافة الإسلامية التعليمية"[27].

ثالثا: الممالك الإسلامية التي قامت في إفريقيا جنوب الصحراء:

كانت النتيجة المباشرة لانتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، أن استطاع المسلمون الأفارقة إقامة إمبراطوريات ودول إسلامية في مختلف مناطقهم، ومن هذه الدول:

❶- **مملكة غانا:** وهذه الدولة الكبيرة التي بلغت أوج مجدها في القرن الحادي عشر الميلادي وإن كان حكامها وثنيون، إلا أن الإسلام انتشر في رعاياها، وقد ذكر أبو عبد الله البكري أنه كان بعاصمتها "كومبي" اثنا عشر مسجدا يؤم الناس في الصلاة فيها عدد من الفقهاء البارزين، وذكر أن عددا من رجال البلاط ومنهم الوزير كانوا عادة من المسلمين.

وكانت تشمل هذه المملكة جزءا من الصحراء الكبرى والسنغال والنيجر إلى أن استولى المرابطون على "كومبي" وعم الإسلام القبائل الوثنية هناك[28].

❷- **مملكة مالي:**

وقامت في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين إلى بداية القرن الخامس عشر، وهي لم تكن تشمل دولة مالي الحالية فحسب، بل إنها قامت على أراضي السودان الغربي الذي يمتد بين النيجر والمحيط الأطلسي،أما شاملا فضمت أراضي عدة دول حالية من بينها النيجر ومالي وبوركينافاسو والسينغال وأجزاء كبيرة من موريتانيا[29].

ومن أبرز ملوكهم منسا[30] موسى الذي تولى الملك سنة 1307م وحج سنة 1327م، وكثرت الروايات عن حجه هذا وما أنفقه فيه، فقد قيل إنه كان ضمن قافلته 100 جمل، على كل منها ثلاثة قناطير من الذهب، وأن ما طرحه

من ذهب في سوق القاهرة أدى إلى هبوط قيمته هبوطا شديدا وظل كذلك مدة طويلة[31].

وزارها ابن بطوطة سنة 753هـ، وذكر من صفاتهم الشيء الكثير، ومن غرائب ما ذكره عنهم قوله: «فمن أفعال السودان الحسنة قلة الظلم... ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام... ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوا، ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون، فقلت: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن، ومررت يوما بشاب حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا؟ أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك، وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن»[32].

وممن تكلم عن هذه المملكة ابن خلدون في تاريخه، وذكر أن مملكة غانة صارت في عهده لسلطان مالي[33].

ويعود الفضل لهذه الدولة في نشر الإسلام في قبائل الهوسا في القرن الثامن الهجري أي الرابع عشر الميلادي.

❸- **مملكة التكرور:**

وكانت في منطقة السنغال حاليا، واستولى عليها ملوك مالي فيما بعد، وضموها إلى مملكتهم.

❹- **مملكة الصنغاي:** نشأت على ضفاف نهر النيجر، وقد انتشر الإسلام في هذا الشعب، وأقاموا مملكة عاصمتها "جاو"، ودخلت في نطاق حكمهم معظم الجهات التي تتكلم الهوسا، وبلغ أوج نفوذهم في القرن الخامس عشر الميلادي.

❺- **دولة البرنو والكانم:** وقد عمرت حوالي تسعة قرون، وكان الإسلام عصب قوتها، والعربية لغتها الرسمية في شتى نواحي الحياة، وقامت في السودان الأوسط ، ومهدها بحيرة التشاد، وامتدت في بعض فتراتها إلى ما بين نهري النيل والنيجر[34].

❻- **دولة الهوسا:** في السودان الغربي، ومركزها مدينة كانوا الإسلامية الشهيرة في شمال نيجريا[35].

❼- **الدولة السُّكُتية:** وقامت هذه الدولة من بداية القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين الميلاديين، ودامت قرنا من الزمن؛ فقد تأسست سنة

1804م على يد الزعيم المصلح الشيخ عثمان بن فودي الفُلاَني (1168-1233هـ/ 1754-1817م) الذي استطاع أن يخضع جميع بلاد الهوسا على اتساعها في دولة واحدة، وضم إليها عاصمة البرنو، وقام بأمر الدعوة إلى الإسلام خير قيام.

وكان الشيخ عثمان بن محمد فودي عالماً وفقيهاً، قضى سنين شبابه في طلب العلم، وممن طلب العلمَ على أيديهم أبوه محمد فودي وأمه حواء وجدته رقية، وبدأ بالدعوة إلى الله تعالى، وتوجه إلى عامة الناس، وخاصتهم، وإلى الملوك والحكام، وكان يدعو إلى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ونبذ البدع، وألف أكثر من 50 مؤلفا في مختلف علوم الشريعة.

فتجمع الناس حوله، وبويع بإمارة المؤمنين عام 1804م، وكان أخوه عبد الله وابنه محمد على طريقته ومن علماء الشريعة أيضا.

وقد كان لعثمان بن فودي، ودولته التي أقامها، فضل كبير في نشر الإسلام بعقيدته الصافية في إفريقيا الغربية، ودخلت قبائل وثنية عديدة في الإسلام نتيجة لجهوده[36].

وشملت الدولة السكتية شمال نيجيريا وجزءا كبيرا من النيجر ومعظم أجزاء الكاميرون[37]، واستمرت هذه الدولة إلى غاية عام 1903م، لما سقطت العاصمة سوكوتو في أيدي القوات البريطانية المحتلة.

❽- وأما في **الساحل الشرقي لإفريقيا**، فقامت إمارات عربية عديدة ودامت حتى القرن السادس عشر الميلادي، بل بعضها بقي إلى القرن التاسع عشر، واصطدموا مع الأوربيين الذين جاؤوا لاحتلال هذه المناطق[38]، وكان موقع هذه الإمارات في منطقة زنجبار - تانزانيا- وما جاورها، وامتدت إلى جزر القمر الواقعة بين مدغشقر والموزنبيق، وجمهورية جزر القمر عضو في الوقت الحالي في جامعة الدول العربية فضلا عن منظمة التعاون الإسلامي، ويتكلم الكثير من أهلها اللغة العربية بطلاقة.

رابعا: دور الممالك الإسلامية في مقاومة الاستعمار وحركة المقاومة للاستعمار البريطاني في شمال نيجيريا أنموذجا:

قاوم المسلمون في إفريقيا الاستعمار الأوربي كل في موقعه، وسجلوا في ذلك مواقف وبطولات مشرفة في بلدانهم، ولنأخذ نموذجا لهذه المواقف المشرفة من مقاومة الدولة السُّكتية للاستعمار البريطاني في بلاد الهوسا:

سبق أن أشرنا إلى أن الدولة السكتية تأسست في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وأنها شملت شمال نيجيريا، وجزءا كبيرا من النيجر، ومعظم

أجزاء الكاميرون، وكانت كل الدول الاستعمارية تتطلع إلى السيطرة عليها، إلا أن مؤتمر برلين جعلها ضمن مناطق النفوذ البريطاني.

ولما بدأت بريطانيا زحفها على إفريقيا الغربية، بدأت في الاتصال بالدولة السكتية الإسلامية، محاولة إقامة علاقات طيبة معها، حتى تكمل استعدادها لابتلاعها، لأنها لم تكن على استعداد للدخول في صراع مع هذه الدولة، وهي لم تتجهز له كما يجب.

ولهذا أرسل فريدريك لوجارد، قائد القوات البريطانية في المنطقة، سنة 1900م، رسالة إلى الخليفة في سوكوتو، وأخرى إلى أمير جواندو، محاولا معرفة رد فعل الدولة السكتية، وفوجئ بعداء الخليفة الواضح للإدارة البريطانية، وعبر الخليفة لرسول لوجارد عن رغبته في عدم تلقي أي رسائل جديدة من الأوربيين، بل طرده من سوكوتو، وكذلك كانت معاملة الرسول الثاني في جواندو.

عرف لوجارد أن حيلته في محاولة إظهار اللطف معهم لم تنفع، وأنه لابد أن يظهر نواياه الحقيقية التي أرسل لتنفيذها. فبدأ في انتهاج سياسة الاحتلال التدريجي للدولة السكتية، وبدأ من الجنوب، فشن هجوما على إمارات الدولة الجنوبية، وواجه مقاومة، إلا أنه استطاع التغلب عليها، فاستولى على إمارة كونتاجورا، وفي سنة 1901م دخل إمارة أدماوا (الكاميرون)، بعد معارك عنيفة مع حاكمها الزبير، وواصل البريطانيون زحفهم، فاستولوا أيضا على إمارتي جومبي وزاريا.

واستطاع المسلمون قتل القائد الإنجليزي مولوني في إمارة كيفي، والتجأ أميرها إلى كانو، حيث استقبل استقبال الأبطال، واعتبر لوجارد هذا سببا قويا لغزو كانو، فقرر الزحف نحوها، وبدأ الهجوم عليها في أوائل يناير 1903م، ورغم قصف المدافع الشديد لبوابة المدينة، إلا أنه لم يؤثر فيها، وبعد محاولات عديدة، وإشعال النيران في البوابة، استطاعوا دخول المدينة، وبقي حاكمها محمد شانو يقاتل، ورفض تسليم القصر، وقاتل بشجاعة فائقة حتى قتل مع جماعة من إخوانه.

لم يتمكن المسلمون من الدفاع عن كانو لاستعمال البريطانيين الأسلحة المتطورة، من مدافع وقاذفات لهب، بينما كان جيش كانو مسلحا بالأسلحة القديمة التقليدية، فلم يتمكن من الصمود طويلا.

وهكذا صار الطريق مفتوحا إلى عاصمة الدولة سوكوتو.

وقبل دخول قوات البريطانيين إلى العاصمة، انقسم رأي علمائها ووجهائها إلى ثلاثة آراء:

الرأي الأول: يرى وجوب القتال إلى آخر لحظة.

الرأي الثاني: يميل إلى عقد اتفاق وهدنة مع البريطانيين.

الرأي الثالث: يرى الهجرة من سوكوتو حتى لا يقع المسلمون تحت حكم النصارى.

وكان الرأي الثالث هو الأقوى، وإليه كان يميل الخليفة محمد الطاهر.

وفي هذه الأثناء، وصلت الأخبار بقدوم الجيش البريطاني إلى سوكوتو، فلم يبق أمام الجميع، سوى خيار واحد هو القتال.

فتواجهوا مع الإنجليز، إلا أن استعمال القوات البريطانية لمدافع المكسيم ساعد على هزيمة جيش سوكوتو، وسقطت العاصمة، واتجه محمد الطاهر إلى مدينة بورمي، ولما دخل الإنجليز إلى سوكوتو، وجدوها شبه خالية، لمغادرة أهلها لها.

واستمر الخليفة في مقاومة الإنجليز، إلى أن تواجه معهم مرة أخرى، في معركة قوية، وذلك في مدينة بورمي، وكانت من أشد المعارك التي خاضها المسلمون هناك، حيث استشهد فيها حوالي 600 مجاهد، ومن ضمنهم الخليفة الذي أصيب برصاصة في رأسه، وهو خارج من المسجد، الذي كان متحصنا فيه، وقتل معه أيضا ولداه، والأمير الزبير حاكم أدماوا.

وفي يوم 27 يوليو 1903م، سجل التاريخ نهاية هذه الدولة الإسلامية، الدولة السكتية، التي ظلت تنشر الدين الإسلامي، وتحارب الوثنية، طيلة قرن من الزمان[39].

خامسا: إحصائيات عن مسلمي إفريقيا في العصر الحاضر:

1- نسبة المسلمين في البلدان الإسلامية الإفريقية[40]:

م	اسم البلد	نسبة المسلمين	م	اسم البلد	نسبة المسلمين
1	مصر	%94	16	ساحل العاج	%60
2	السودان	%79	17	توجو	%60
3	ليبيا	%100	18	بينين	%60
4	تونس	%96	19	نيجيريا	%65
5	الجزائر	%100	20	الكاميرون	%60
6	المغرب	%99	21	النيجر	%94
7	موريتانيا	%100	22	تشاد	%85
8	الصومال	%100	23	الصحراء الغربية	%100
9	جيبوتي	%100	24	إثيوبيا وإريتريا	%65
10	السنغال	%95	25	تنزانيا	%63
11	غامبيا	%85	26	جزر القمر	%80
12	غينيا	%95	27	غانا	%50
13	غينيا بيساو	%70	28	سيراليون	%65
14	مالي	%90	29	موزنبيق	%50
15	بوركينافاسو	%64			

2- الأقليات المسلمة في إفريقيا[41]:

م	اسم البلد	نسبة المسلمين
1	كينيا	%35
2	ليبيريا	%33
3	أوغندا	%30
4	مدغشقر	%25
5	موريشيوس	%30
6	مالاوي	%30
7	زامبيا	%15
8	زمبابوي	%32
9	إفريقيا الوسطى	%35

10	الكونغو(برازفيل)	%25
11	الكونغو الديمقراطية (كينشاسا)	%10
12	بورندي	%25
13	الجابون	%45
14	غينيا الاستوائية	%3 .13
15	انجولا	%25

ونستطيع بناء على الإحصاءات الحديثة لأعداد المسلمين أن نسمي القارة الإفريقية بالقارة الإسلامية، وهي القارة الوحيدة التي يمكننا أن نطلق عليها هذا الاسم؛ وحاضر القارة يشهد بذلك، وتنطق به الحقائق التالية:

- أكثر من 60% من مجموع سكان إفريقيا مسلمون.
- مساحة الدول المسلمة في قارة إفريقيا تبلغ 19.368.577 كلم^2، من ضمن مساحة إفريقيا الكلية البالغة 30.065.000 كلم^2؛ أي أنها تقارب ال64،5% من مجموع مساحتها[42].
- تشهد الدعوة الإسلامية تجاوبا كبيرا من الأفارقة، فأعداد كبيرة منهم يدخلون في الإسلام في العصر الحاضر، مما يبشر بمستقبل زاهر للإسلام في هذه القارة.

هذا إضافة إلى أهمية القارة عربيا، ففيها:

- قرابة 70% من مجموع العرب.
- 75% من الأراضي العربية[43].

خاتمة:

نخلص في ختام هذه الدراسة إلى ما يلي:

ـ بطلان دعوى أن الأوربيين هم من اكتشف القارة، فقد سبقهم المسلمون إلى ذلك بقرون عديدة، تصل في بعض المناطق إلى خمسة قرون، باعتبار أن المسلمين قد توغلوا في القارة ابتداء من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأما البرتغاليون ـ وهم أول من غزا القارة من الغربيين ـ فلم يصلوا إلى القارة إلا في القرن الخامس عشر الميلادي.

- بيان الطرق السلمية التي وصل بها الإسلام إلى إفريقيا جنوب الصحراء، وأنها من المناطق التي وصلها الإسلام دون حروب، وأنها في ذلك مثل جنوب شرق آسيا التي يشير إليها الباحثون دائما وينسون إفريقيا.

- بيان دور المسلمين في تنمية القارة، وإقامة دول وحضارات على أراضيهم شهد الكل بتقدمها ورقيها.
- إبراز صورة مقاومة المسلمين للاستعمار الأوربي، وبيان الجهد الكبير الذي قاموا به في سبيل صد موجات الاستعمار التي غزت القارة.
- تبيين حقائق حول أعداد المسلمين في القارة.

الهوامش:

[1] د. شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مكتبة الإنجلو المصرية القاهرة، الطبعة الثانية سنة 1980، ص34 و45.

[2] أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني بيروت، الطبعة الثانية 1983م، ص 142-143، تحت مبحث بعنوان: إفريقيا قارة الإسلام.

[3] د. شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مرجع سابق، ص45.

[4] المسعودي، علي بن الحسين:
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: فهرسة يوسف أسعد، طباعة دار الأندلس بيروت، 1973م.
- وأخبار الزمان: طبعته دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت سنة 1416هـ -1996م.
- والتنبيه والإشراف: صححه عبد الله إسماعيل الصاوي، ونشره في داره دار الصاوي بالقاهرة، بدون تاريخ.

[5] المرجع نفسه، 1 / 40.

[6] المرجع نفسه، 1 / 169.

[7] ياقوت الحموي، معجم البلدان، مرجع سابق، 225/1.

[8] انظر خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر، ماي 2002 م، 7/ 24.

[9] المرجع نفسه 2/ 85.

[10] انظر ابن بطوطة، الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، 25/1، 30.
وابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مراقبة محمد عبد المعيد ضان، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الهند، الطبعة: الثانية، 1392هـ/ 1972م، 227/5.

وابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ 1988م، 182/1.

[11] د. شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مرجع سابق، ص 62.

[12] د. حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي بيروت، الطبعة الثالثة 1986م، ص 27-28.

[13] السلاوي، أحمد بن خالد بن محمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء المغرب، 122/1.

[14] مقال بعنوان: الأديان التقليدية في إفريقيا، ضمن مجموعة بحوث باسم الإسلام في إفريقيا، ص 13.

[15] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث بيروت، الطبعة الثانية 1387هـ 594/2.

والذهبي، محمد بن أحمد بن قَايْماز، سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405هـ 1985م، 36/3.

[16] السلاوي، أحمد بن خالد بن محمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، 141/1-145.

[17] ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1418 هـ 1997م، 226/10-227.

[18] المرجع نفسه، 215/11.

[19] عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تحقيق د. أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى 1987م، ويقع في 343 صفحة.

[20] السلاوي، أحمد بن خالد بن محمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، 36/1.

[21] محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، جمع ابنه د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى 1997م، 104/5 بتصرف.

[22] البخاري، محمد بن إسماعيل، الصحيح، تحقيق: محمد زهير الناصر، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ ، 5/ 51 رقم الحديث: 3877.

[23] أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، مرجع سابق، ص 144.
[24] المرجع نفسه.
[25] د. حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، مرجع سابق، ص 47-48.
[26] سيأتي الحديث عنها بعد قليل إن شاء الله.
[27] د. والتر رودني في كتابه "أوربا والتخلف في إفريقيا"، مرجع سابق، ص 73-77.
[28] د. شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مرجع سابق، ص 75.
وانظر كتاب د. إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1970م.
[29] انظر د. إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.
[30] كلمة منسا معناها السلطان كما ذكر ذلك ابن بطوطة في رحلته 781/2.
[31] د. شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مرجع سابق، ص 76.
[32] ابن بطوطة، الرحلة، مرجع سابق، 2/ 790.
[33] ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، 1/ 55.
[34] انظر د. إبراهيم طرخان، إمبراطورية البرنو، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1975م.
ومصطفى علي بسيوني، برنو في عهد الأسرة الكانمية، دار العلوم للطباعة والنشر، سنة 1984م.
[35] د. فيصل محمد موسي، موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مراجعة د. ميلاد المقرحي، منشورات الجامعة المفتوحة بليبيا 1997م، ص 57.
[36] د. حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، مرجع سابق، ص 221.
ود. حسين مؤنس، الإسلام الفاتح، دعوة الحق السنة الأولى رجب 1401هـ العدد 4، ص 130.
ود. جميل بن عبد الله المصري، حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1405هـ ، ص681.
[37] د. شوقي الجمل، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، بدون تاريخ، ص 249.
[38] د. شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مرجع سابق، ص 78.
[39] انظر: الإسلام في إفريقيا، مجموعة بحوث، مرجع سابق، ص 110.

ود. شوقي الجمل، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 249.

[40] المرجع نفسه ص17.
وشوقي أبو خليل، أطلس دول العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 197-199.
مع مقارنتها بمراجع أخرى كثيرة.

[41] شوقي أبو خليل، أطلس دول العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 161- 184.

[42] شوقي أبو خليل، أطلس دول العالم الإسلامي، دار الفكر الطبعة الثانية 2003م، ص 195.

[43] د. جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، مرجع سابق، ص 645.